مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية
المجلد 39- العدد 4 (2023) 153-165

Damascus university Journal for engineering sciences
Vol 39 No.4 (2023): 153-165

قراءة مكانيّة سيميائيّة لمدينة دمشق القديمة

أ.د. رنا حتمل

أستاذ مساعد – قسم التصميم المعماري– كلية الهندسة والتكنولوجيا – جامعة الرشيد.

الملخص

يتناول البحث تفسيراً مكانياً لمدينة دمشق القديمة، بالاعتماد على منهج سيميائي مُستَمَد من رؤية بيرس Pierce للدلالة، وتُبنى هيكلية التحليل المكاني تحديداً على – تراتبيّة ارتباطات الدلالة في– مثلث العلاقات السيميائي لدى بيرس Pierce ، كما يُعني البحث بتقديم تفسير سيميائي للمكان في المدينة بمستوياتها الأربعة؛ المستوى التخطيطي، العمراني، المعماري، بالإضافة إلى الدخول في مستوى المقياس الأصغر في البحث وهو مستوى العناصر المعمارية.

يُستهل البحث بمقتطفات مُختارة من تاريخ المدينة، حيث تُربَطُ المُعطيات المكانية المدروسة بأُصولها العمرانية والمعمارية التاريخية، وقد تم تعيين الحاضنة التاريخية للدلالات المكانية بهدف شرحها إلى وتفسيرها، مثل نشأة المدينة العمراني وأُسلوب تخطيطها، والتغيير الحاصل في بُنيتها المكانيَّة الشكلية المُترافق مع تتابع الأحداث التاريخية.

يُفيد العرض التاريخي في فهم تكوين المدينة العمراني وتحديد عناصرها المعمارية بما يلائم طبيعة البحث. وتُؤلف المقدمة التاريخية قاعدة تعريفيَّة تمهيدية تُبنى عليها القراءة المكانية بغاية الوصول إلى التفسير المكاني للدلالات المُلتقطة؛ والتي تؤلف هدف البحث.

تُشكِّل أسوار مدينة دمشق التاريخية حدود البحث الجغرافية، وزمن الدراسة هو بداية القرن الحالي مع العودة للأصول التاريخية القديمة للمدينة وفهم تأثيراتها على الواقع الراهن.

الكلمات المفتاحية: سيمياء المكان، دمشق القديمة، البيت التقليدي، دلالة، قراءة مكانيَّة.

تاريخ الإيداع:2022/2/6
تاريخ القبول:2022/5/24

حقوق النشر: جامعة دمشق –سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص
CC BY-NC-SA 04

ISSN:2789-6854 (online)

http://journal.damascusuniversity.edu.sy

A Semiotic Spatial Reading Of The Old City Of Damascus

Rana Hatmal

Associated Professor in the Department of Design of Architectural Engineering - Al Rasheed International Private University for Science and Technology.

Abstract

The research deals with a spatial interpretation of the old city of Damascus, based on a semiotic approach which is derived from Pierce's semiotic vision. The structure of the spatial analysis is established on the hierarchy of relations of Pierce's Triangle as it also aims to provide a semiotic explanation of the place in the city in four levels: the planning, the urban, and the architectural one, in addition to going through the level of the smallest scale regarding this research, namely the level of architectural elements.

The research begins with selected events from the rich history of the city; where the studied spatial data are linked to their historical urban and architectural origins. Furthermore, the historical incubator of spatial connotations has been set for the purpose of explaining and interpreting; adding to that, the changes in the city's spatio-formal structure associated with a sequence of the historical events occurred.

The historical presentation helps to understand the urbanism of the city and to identify its architectural elements according to the nature of the research. The historical introduction forms a preliminary definition in order to reach the spatial interpretation of the captured spatial-signs that constitutes the goal of the research.

The fences of the historic city of Damascus frame the geographical limits of the research, where the study time is the beginning of the current century, taking into account a good understanding of the ancient historical origins of the city as an established background.

Keywords: Semiology Of Spaces, Old Damascus, Traditional House, Sign, Spatial Reading.

Received: 6/2/2022
Accepted: 24/5/2022

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a CC BY- NC-SA

1- تاريخ مدينة دمشق في إطار البحث

يَتطرّق البحث لعرض تاريخي سريع لمدينة دمشق، ويَتَعامل مع المعطيات التاريخية التي تفيد في فَهم موضوعِه، ويختار السمات والأحداث التاريخية التي تساعد على بناء الموضوع فقط دونَ غيرِها، بسبب استحالة الإحاطة بكامل تاريخ المدينة الزاخر بالأحداث.

تُكون الأحداث التاريخية التي مرت بالمدينة مرجِعاً تُربط فيه سمات العمارة والعمران الاجتماعية بجذورها التاريخية، يُستشهد في هذا السياق اعتماد فرويد[1] Freud على مفهوم الرمز الكامن (المُستتر أو المُخبّأ) كوساطة لتفسير النتاج الإنساني المادي والفني[2]، وبإعادة تعريف الرموز ذات الأصول التاريخية في العناصر المكانية في المدينة، معمارياً وعمرانياً، يُصار إلى فهمها وإمكانية تفسيرها.

تشهد التنقيبات الأثرية عَبر تاريخ المدينة أنها أقدم عاصمة مأهولة عبر التاريخ. سُكنت دمشق بدايةً في (ما يقارب) عام 7000 ق.م.[3]، وقد تنقَّلت السلطة في المدينة من يد امبراطورية إلى أخرى تباعاً، حيث كانت دمشق مطمعاً لكبرى الامبراطوريات والممالك منذ القدم.

1-1- الكنعانيون

استوطن الكنعانيون منطقة بلاد الشام[4]، وأسسوا عدّة ممالك، قبيل وبعد منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، وقد ضمت إحدى الممالك الكنعانية (أفَّا) البقاع، سلسلة لبنان الشرقية ودمشق[5].

1-2- مملكة آرام - دمشق

تأسست مملكة دمشق الآرامية '' آرام – دمشق'' في أواخر القرن الحادي عشر ق.م، ثُم تطورت وأصبحت مملكة كبرى تَمتدُّ من الفرات إلى اليرموك، إلى أن تمَّ القضاء عليها من قبل الآشوريين عام 732ق.م[6].

1-3- دمشق في الفترة اليونانية والرومانية

كانت المدينة على اتصال وثيق بالثقافة اليونانية منذ عام 333 ق.م.، وذلك قبل أن تَتبع رسمياً لإمبراطورية الاسكندر، بعد أن استولى عليها سنة 321 ق.م[7]، وقد ظَلَّت تحت حكم اليونان حتى تَسلَّم الرومان[8] حُكمَها سنة 64 ق.م.

طَبَّق اليونان أُسلوبَهم في التخطيط Planning City، من شوارع مستقيمة ومتعامدة ومتقاطعة على المدينة، وقد أُدمِجَ التخطيط اليوناني مع البُنية الآرامية للمدينة في ذلك الوقت[9].

تَوَسَّعت دمشق في الفترة الرومانية التي تَلَتْ، دون تَغيير في البُنية التخطيطية اليونانيَة، وقد قَطعَ المدينة من

---

[1] سيغموند فرويد Sigmund Freud، (1856-1939)، طبيب أعصاب نمساوي، ومؤسس مبدأ التحليل النفسي من خلال وضع نظريته الخاصة عن اللاوعي، كما قدّم تفسيره الخاص للنقد الفني المبني على دوافع الفنان النفسيَّة.

[2] Thémélis Diamantis, Freud et l'art - Enjeux épistémologiques. 2006. P3

[3] P.E. Dion, Les Araméens à l'Âge du Fer : Histoire politique et structure sociale, Paris, Librairie Lecoffre, 1997, P 20

[4] جان مازيل، ترجمة ربا الخش، تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية، اللاذقية، سوريا، 1994، ص 32

[5] علي أبو عسَّاف، دمشق في العصور الكنعانيَّة، مجلّة التراث العربي، العدد 55 و 56، 1994

[6] نزار حسن، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية– المجلد 24 –العدد الثاني–2008

[7] أحمد غسان سبانو، دمشق في دوائر المعارف العربية والعالمية، دمشق، سوريا، 1972، ص 68

[8] أعلن الامبراطور بومبي سوريا مقاطعة رومانية سنة 64 ق.م. بعد نزاع ما بين البطالسة والسلوقيين على المدينة بعد وفاة الاسكندر.
– جان سوفاجيه، دمشق الشام، لمحة مختصرة منذ العصور القديمة وحتى العصر الحاضر، بيروت 1936. ص 15.

[9] Zara Lababedi, The Urban Development of Damascus:A study of its past, present and future, Faculty of The Built Environment -Bartlett School of Planning, 2008.P15

الشرق إلى الغرب شارعٌ محوري رئيسي حافظ على وجوده حتى يومنا هذا. وترجع أصول سور دمشق الحالي مع بواباته السبعة[10] إلى الفترة الرومانية.

تُمثل الأشكال الثلاثة التالية مخططَ مدينةِ دمشق:

الشكل (1) عبارة عن مخطط لدمشق في الفترة اليونانية ويُظهر الشوارع (الشطرنجيَّة) المُتعامدة والشارع الرئيسي المحوري شرق – غرب.

والشكل (2) هو مخطط دمشق الرومانية مع أسوار المدينة.

والشكل (3) هو مخططٌ راهنٌ لمدينة دمشق القديمة (داخل السور)، وفيه تَظهر هيكلية المدينة اليونانية – الرومانية، إضافة إلى ظهور نسيج عضوي (تلقائي)، نما بِفعلِ مرور الزمن وتعاقب الحقبات التاريخية على المدينة.

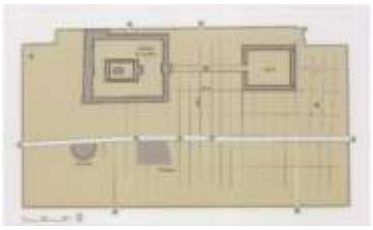

الشكل (1) [11] مخطط لدمشق اليونانية.

الشكل (2)[12] مخطط دمشق الرُومانية: وتظهر فيه شوارع المدينة اليونانيَّة (بالخط المستقيم)، والشوارع التي أُضيفت في فترة دمشق الرُومانية (بالخط المُنقَّط)، مع أسوار المدينة.

الشكل (3)[13] مخطط الشوارع في مدينة دمشق القديمة الرَّاهن (داخل السور).

1-4- دمشق عاصمة الأمويين من عام 661 حتى العام 750 م.

تَذكُرُ بعض المراجع[14] أن البيت التقليدي قد ظهر للمرة الأولى في زمن الأمويين، في فترة حكم الخليفة معاوية، وجاء في وَصف بيتِهِ أنه احتوى على فتحة سماوية مركزية Patio مناخيّة الوظيفة، مزروعة بالأشجار المثمرة، وتتوسطها بحرة تُلطِّف حرَّ الصيف؛ ولكن حقيقةَ الأمر أن وُجودَ البيت التقليدي يَسبق ذلك التاريخ بكثير؛ وعند البحث عن الجذور التاريخية للبيت التقليدي، نجدَ أن صفاته الشكلية تُشكل استمراراً وتطويراً لتكوينِ المسكن في الحقبة –الكنعانيَّة– من تاريخ المنطقة، إذ أن المسكن الكنعاني يحوي فناءً داخلياً تتوزع حوله الغرف على طابقين[15] (انظر الشكل 4)، وقد حافظ البيت التقليدي على خصائصه الأساسية والتي تتمثل في مركزية الفناء الداخلي المفتوح في الفترة اليونانيَّة ومن ثم الرومانيَّة للمدينة؛ يحوي البيت الإغريقي فناءً رئيساً متصلاً بالمدخل مباشرةً، تَتوزَّع حوله الغُرف (انظر الشكل 5)، كما حافظ الفناء الداخلي المركزي على وجوده في فترة حكم الرومان؛ إن البيت في روما

10

11 Hasan Mansour, The lost identity of the city: The case of Damascus, CITTA 8th Annual Conference on Planning Research, 2015. P9 https://www.researchgate.net/publication/286252741_The_lost_identity_of_the_city_The_case_of_Damascus [accessed Feb 15 2022].

12 Zara Lababedi, The Urban Development of Damascus:A study of its past, present and future, Faculty of The Built Environment -Bartlett School of Planning, 2008.P17

13 http://www.shababsouria.com/portal

14 Roujon Yves, Vilan Luc, LES FAUBOURGS DE DAMAS, chapitre 6, Presses de l'Ifpo, Publications de l'Institut français du Proche-Orient.

15 فيروز مصطفى إبراهيم، نشأة المسكن في المدن، كلية الهندسة – جامعة طرابلس، 2019

القديمة، كما وَرد في الكتب العشرة للمعمار فتروفيوس[16] Vitruviusذو مسقط مربع أو مستطيل أقرب للانتظام مع فناءٍ داخلي مفتوح تتوضع الغرف حوله، (انظر الشكل 6) وهذه هي عَيْنُ الصفات الرئيسية لبيوت مدينة دمشق القديمة التقليدية.

الشكل (4)[17]، منظور للبيت الكنعاني (حوالي 1500 ق. م.)

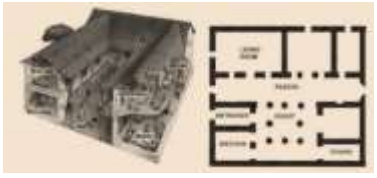

الشكل (5)[18]، البيت الإغريقي

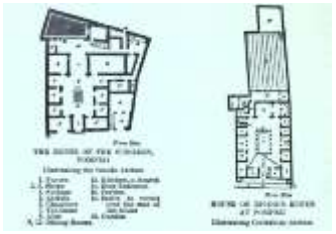

الشكل (6)[19]، بيت سيرجون Surgeon، وإبيبدوس Epidius في بومباي حسب فتروفيوس.

أُضفيَ بمرور الوقت – وبتأثير تمازجِ الثقافات المتتابعة – على عمارة مساكن دمشق القديمة التقليدية طابعٌ محلي، مثل إضافة الزخارف الهندسية على السطوح باستخدام ترتيب مُعين للأحجار الطبيعية الملونة، إضافة لِتبني بعض للعناصر المعمارية الصريحة كالمشربية والسباط.

2- المنهج السيميولوجي Semiotic approach

2-1- مدخل:

تَعتمد معارف الإنسان على استكشاف العالم الخارجي؛ وفي هذا الصدد أشار بيرس Pierce إلى مساءَلة مفهوم الدلالة[20] (الإشارة)؛ فالدلالة هي مُفتاح ترجمة المحيط وبالتالي إدراكه؛ بالاستناد إلى تراكم المعارف المُكتسبة سابقاً.

يَهتم البحث بدراسة المدينة القديمة من وجهة نظر السيميولوجيا[21] Semiology، ويشرح العلاقات المكانية بين الكتلة والفراغ؛ والتي تُؤلف أجزاءها القِطاعات العمرانية، ويُصار إلى التفسير المكاني بدراسة دلالات الارتباط المكاني وتحليلها.

يَستند البحث إلى رؤية بيرس في الحقل السِّيميولوجي، عَبْرَ تَتَبُّع خطوات تفسير الإشارة – التي شرحها في مثلث علاقاته الشهير – وذلك لبناء هيكلة التحليل في البحث الحالي. أنشأ بيرس ما يسمى بالقاعدة المثلثية[22]، وتتكون من ثلاث عمليات مترابطة النهايات[23]، تُبنى كل عملية / أو عنصر على علاقتها بالعمليتين المُتَبَقِّيَتَيْن فيما يُكوِّن

---

[16] ماركوس فتروفيوس بوللیو Marcus Vitruvius Pollio، المعروف بـ فتروفيوس معمار روماني ومهندس حربي (80 ق.م. – 15م)، مؤلف كتاب De architectura – والذي يُعد مرجعاً معمارياً مهماً لأعمال الفترة الرومانية، بالإضافة إلى تَطرقه للفلسفة، الرياضيات، والطب. تَعود النسخة الحالية لكتابه إلى مخطوط من القرن الثامن، طبع لأول مرة في روما سنة 1486.

[17] فيروز مصطفى إبراهيم، نشأة المسكن في المدن، كلية الهندسة – جامعة طرابلس، 2019

[18] المرجع السابق

[19] Vitruvius Pollio. Vitruvius, the ten books on architecture. Cambridge, Harvard university press; 1914

الكتاب الخامس ,ص 176.

[20] تم استخدام كلمة الدلالة كترجمة لكلمة Sign

[21] في بعض المراجع العربية تستخدم كلمة السّيمياء كتعريب لـ سيميولوجيا، Semiology /Semiotics: وهي ما يعرف بعلم الإشارة أو الدلالة.

[22] تَمَّت الإشارة إلى القاعدة المثلثية لـ بيرس بنظرية المثلث السيميائي في بعض المراجع العربية.

[23] Mogens Kilstrup, Naturalizing semiotics: The triadic sign of Charles Sanders Peirce as a systems property, Technical University of Denmark, 2015, P6

سلسلة مترابطة بطبيعة الحال، تم ترتيبها على شكل مثلث علاقات، وفيما يلي شرحاً للعناصر التي تؤلف مثلث العلاقات، وما يُقابلها من خطوات التفسير في البحث (انظر الشكل 7):

– الرمز / الإشارة / الدَّال Representamen: ومُقابله: **التقاط الدلالات / المعاينة؛ ملاحظة المعطيات المكانية ضمن إطارها التاريخي**

– العُنصر/ الموضوع / المَرجِع Object: ويُشير إلى **العناصر العمرانية والمعمارية**

– المدلول Interpretant: ويُقابله في البحث **تفسيراً** لعناصره العمرانية والمعمارية.

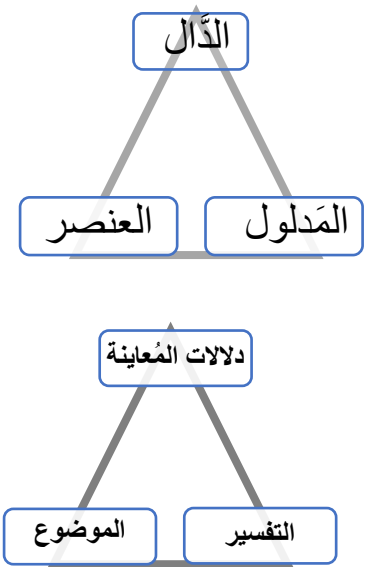

الشكل (7)[24] مثلث العلاقات حسب بيرس (في الأعلى)، واسقاطه على الحالة البحثيّة للمدينة (في الأسفل).

يُفضي تطبيق المنهج – المستمد من مثلث علاقات بيرس – على حالة البحث إلى التفسير المكاني للعناصر العمرانية والمعمارية، وذلك بعد رسم المسار المُعيَّن لمنهجيّة التفسير؛ كما هو مُوضَّحٌ في الجدول التالي (الجدول 1):

[24] الباحثة

الجدول (1) ترتيب هيكليّة التفسير في البحث حسب ترابط عناصر "مثلث العلاقات" نَسبَةً لـ بيرس

تراتُبيَّة خُطوات التفسير حسب مثلث بيرس		
عناصر مثلث بيرس		عناصر التفسير في البحث
الدَّال Representamen	←	دَلالات المُعاينة /الأفكار/ المَرجِع Signs
العُنصر Object	←	عناصر المدينة العمرانية – المعمارية: مقياس تخطيط المدينة City Planning؛ مقياس التصميم العمراني Urban Design؛ مقياس العمارة Architecture؛ مقياس العناصر المعمارية Architectural Details
المدلول Interpretant	←	التفسير / القراءة المكانية Spatial Reading

2-2- الدال والعنصر والمدلول بحسب معطيات البحث:

2-2-1- الدال وهو الحلقة الأولى في "مثلث بيرس" وما يقابله من دلالات المُعاينة:

تُدرس معطيات المدينة المكانية على اعتبار أنها تُؤلف باجتماعها لُغةً تتكلمها المدينة؛ ومن الممكن تفسير خطاب المدن بحسب رولان بارت[25] Roland Barthes، باعتبار دلالاتها كلماتٍ وجُملاً[26] مُتوافقة فيما بينها، تَشي بمعنى الخطاب التي تسعى إلى ايصاله إلى المتلقين.

تم ملاحظة المعطيات المكانية في المدينة القديمة، والتقاط الدلالات من سياق الحقائق التاريخية التي وردت في مُستهلِّ البحث، وفيما يلي تبويباً لدلالاتها بحسب مستويات المدينة؛ التخطيط، العمران، العمارة، وأخيراً مستوى العناصر المعمارية؛ كما يلي:

- حافظت دمشق القديمة على ملامح التنظيم "الشطرنجي" للمدن الرومانية القديمة.
- تكون النسيج العمراني لمدينة دمشق القديمة عبر مرور الزمن، وتطور تبعاً لهيمنة ممالك عديدة، صَبغت عمران المدينة بطابعها الخاص.
- يَنفتح البيت التقليدي نحو الداخل على فتحة سماوية مركزية.
- يَتميز البيت التقليدي بوجود عناصر معمارية ذات نمط معين وصفاتٍ شكليَّة خاصة.

2-2-2- العنصر وهو الحلقة الثانية في "مثلث بيرس" وما يقابله من عناصر المدينة العمرانية والمعمارية

اعتماداً على الفرضيِّة التي تقول بأنَّ تآلف دلالات المدينة يُكوِّنُ ما يُشبه اللغة، والتي بمجموع كلماتها يُفهم المعنى؛ وبما أن لكل مدينة لغة خاصة بها، تترجم من خلال مجموع الدلالات والرموز- المكانيّة- بطريقة مُشابهة لتآلف الكلمات التي تكوّن الجُمل والتي تتَّبع نظاماً لغوياً تفرضه قواعدَ لغوّية، وتُشكَّل الجمل بدورها خطاباً لغوياً

[25] رولان بارت Roland Barthes (1939-1980) فيلسوف فرنسي ومنظر اجتماعي، أثّر في علوم السّيمياء وأضاف إليها ودرّسها.

[26] Roland Barthes, L'aventure sémiotique, aux éditions du Seuil, Paris, 1985. P200-202

يسعى لتقديم معنىً خاص به[27]؛ وبالتالي من المفيد تَصنيف التحليل المكاني في هذا البحث إلى أربعة مستويات حسب مفهوم المقياس (Scale) من الأكبر وصولاً للأصغر، من البنى الرئيسيّة إلى البُنى الفرعية المُكونة للمدينة بالتتابع، وكأنها بمجموعها تُشكل بُنىً وجُمَلاً لغوِيَّة مُتراتَبة بنظام مُعيَّن (وهو المقياس)، كما في الآتي:

2-2-2-1- مستوى مقياس تخطيط المدينة City Planning:

الدال -1- (تخطيط المدينة): شبكة تخطيط منتظمة ومتعامدة للمدينة من الفترة اليونانية الرومانية.

الدال -2- (تخطيط المدينة): نسيجٌ عمراني عضوي، نما على الشبكة المتعامدة الأقدم عهداً.

اتّخذت طبقة النسيج العمراني الناشئة – مع مرور الوقت – على بقايا الشبكة الرومانية الهندسيّة للمدينة الشكل العضويّ؛ الأمر الذي يوحي بعلاقة عكسية مع طبقة النسيج العُمراني الرُّوماني.

وبالتالي تُترجم العلاقة العكسية بتضاد عنصرين أحدهما هندسي، والآخر عضوي الشكل.

2-2-2-2- مقياس الشوارع والأبنية Blocs وهو مستوى التصميم العمراني Urban Design

الدال -1- (التصميم العمراني): اتساع الشارع المستقيم نسبةً للزقاق.

الدال -2- (التصميم العمراني): حجم فراغ الحركة العمراني الضعيف في مقابل الكتل المبنية

نُلاحظ نَمطية العلاقة العكسية بين مكونات العُمران، فمن جهة يُقرأ التضاد بين الشارع الفرعي (الزقاق) ذو المقياس الإنساني وبين عرض الشارع المستقيم في المدينة القديمة والذي يرجع إلى الفترة اليونانية الرومانية، وهذا يعني وجود العلاقة التقابُليَّة التالية (ضيّق x واسع).

تَتلاحم البيوت في دمشق وتتلاصق لتكوِّن نسيجاً عمرانياً يَصعُب اختراقه في فترات الحروب والنزاعات الكثيرة والمتلاحقة التي شهدتها كامل المنطقة؛ وفي هذا الصدد يُستشهد بتورية المداخل وضيق الأبواب الخارجية وصعوبة الوصول إليها ما يمنحُ السكان درجة إضافية من الحماية والأمان.

ومن جهة أخرى، تتجلى علاقة التضاد بين البيوت المتلاصقة أحداها على الأخرى، تاركةً بينها ممرات وشوارع (فرعيّة) تأخذ هيئة الأوردة والشرايين في الكائنات الحيّة.

2-2-2-3- مقياس العمارة Architecture

الدال -1- (العمارة): الانفتاح نحو الداخل.

الدال -2- (العمارة): غنى الساحة الداخلية.

يُشكِّل البيت التقليدي الوحدة المُولِّدة لعمارة دمشق القديمة؛ وبهدف الوصول إلى تِفسير مكاني للمدينة على المقياس المعماري لا بد من دراسة البيت التقليدي وتسمية عناصره المُميِّزة وتحديد العلاقات المكانيّة التي تجمع فيما بينها.

الشكل التالي (8، 9) يُمثِّل نموذجاً للبيت التقليدي.

الشكل (8)[28] نموذج لمسقط البيت التقليدي في دمشق القديمة

A: مدخل، B: بحرة، C: مسقط شجرة، D: القاعة، E: الدرج، F: تزّاس Terrasse

[27] Roland Barthes, L'aventure sémiotique, aux éditions du Seuil, Paris, 1985.P202-203

[28] LES, Yves Roujon, Luc Vilan, FAUBOURGS DE DAMAS, chapitre 6, Presses de l'Ifpo, Publications de l'Institut français du Proche-Orient
http://books.openedition.org.proxy.bibliotheques.uqam.ca:2048/ifpo/4174
- Une maison traditionnelle de (Sowaayqa).

الشكل (9)[29]، منظور اكسنومتري Axonometry لنموذج البيت التقليدي في دمشق القديمة

A: مدخل، B: بحرة، D: القاعة،

F: تزّاس Terrasse.

الـدال 1– (العمـارة**):** اخـتلاف سـمات فراغـات البيـت التقليدي؛ المدخل، الفسحة السماوية، القاعة.

– يُسـتخلص وعلـى مسـتوى العمـارة علاقـات تضـاد عَكسيّة مشابهة لما سَبق ذكره:

ضِـيق المـدخل مقابـل كِبَـر حجـم الفسـحة السـماوية المركزية، بالإضافة إلى التضاد بين السقف الواطئ مُقابل الأسقف العالية لغرف القاعات الكبيرة الرئيسية في البيت التقليدي، وتُلاحظ علاقة التضاد بين العنصرين السابقين (المدخل مع القاعة) على مستوى الأبعاد الثلاثة.

– تَجنب الفتح فـي الجـدران الخارجيـة نحـو الخـارج، وخصوصـاً فـي مسـتوى الطـابق الأرضـي، بالتضـادْ مـع الانفتاح التام نحو الداخل.

– تتوضح علاقة التضاد أيضاً ما بين عناصر الداخل والخـارج؛ مَثل الأَزقّة المرصوفة بالأحجار من نوع ولون واحد غالباً، والتي تكون الخارج، في مقابل الداخل المُكوَّن مـن "أرض ديـار" مزركشـة وزاخـرة بالعناصـر المزخرفـة والملونـة، وتُتَرجم العلاقة بـ " خارج متواضع على مستوى الزخرفة واللّون X داخل غنيّ زخرفةً ولوناً".

الصورة (10)[30] الباحة الداخلية المفتوحة في البيت التقليدي أو ما يسمى أرض الديار

الصورة (11)[31] الزقاق المُفضي إلى البيوت في دمشق القديمة

2–2–2–4– مقياس العناصر المعمارية

تَـرتبط العناصـر المعماريـة للبيـت التقليـدي بعلاقـات مكانيِّـة تَبادُليـة بالنسـبة لشكلها ولوظيفتها، وتكون دلالاتها كما يلي.

الـدال 1– (العناصـر المعماريـة**):** الصـفات الشـكليّة لعنصرين في البيت التقليدي.

وصفٌ للمشربية والسباط في دمشق القديمة:

المشربية[32]: غَرَضها الأساسي مناخي الوظيفة، وتفادي الأشـعة الشمسـية المباشـرة التـي تضـيف حـرارة زائـدة، مـع

[29] LES, Yves Roujon, Luc Vilan, FAUBOURGS DE DAMAS, chapitre 6, Presses de l'Ifpo, Publications de l'Institut français du Proche-Orient http://books.openedition.org.proxy.bibliotheques.uqam.ca:2048/ifpo/4174
- Une maison traditionnelle de (Sowaayqa).

[30] مصدر صور البحث أرشيف الفنان التشكيلي والمصوِّر الفوتوغرافي السُّوري جورج عشي في بدايات القرن الحالي.

[31] المصدر السابق

[32] المشربية باعتبارها نافذة بارزة أو شرفة مُغلقة، منتشرة في بلاد عدة؛ إيران، إيطاليا، ومصر واليمن والسعودية والعراق، ويُختلف على تاريخ ظهورها، ومن المعروف أنها اكتسبت طابعاً زخرفياً إضافياً خاصاً بالمنطقة (في العراق وسوريا ومصر) ابان الحكم العباسي في القرن الثاني عشر.

السماح بإدخال النور إلى الداخل، إضافة إلى حجب الأنظار الخارجية، وإضفاء جو من الخصوصية الكامل على سكان البيت. تُكون زخارفها أشكالاً هندسية والمادة المُستخدمة هي قُضبان والواحَ خشبية دقيقة الصنع.

السِّباط: يتوضع في مستوي الطابق الثاني، ويُكوِّن امتداداً لفراغ أحد البيوت حتى يلتصق بجدار البيت المقابل تماماً، مُشَكِّلاً ما يشبه جسراً صغير فوق الشوارع الفرعية الضيّقة في دمشق القديمة، حيث يَردُّ التركيب المعماري على عامل المناخ الحار في دمشق –صيفاً– عبر الظلال المُشكَّلة على الحوائط الخارجية وعلى الأزقة بين البيوت.

تُعزِّز الارتباطات المكانيِّة للمشربية والسباط علاقات التضاد بالتشابه مع طبيعة العلاقات (العكسية) المُستخرجة في المقياس العمراني والمعماري، وكمثال على علاقات التضاد يُذكر ما يلي:

– منظور خارجي مُتاح من الداخل، والعكس غير صحيح، حيث تَمنع المشربية نظرات المارَّة المتطفلة. (انظر الصورة 10)

– نظام تظليلٍ تَمنَحه العناصر المعمارية (بروز المشربية والطبيعة الشكلية للسباط) على الواجهات الخارجية وعلى الأزقة، بطريقة مناقضة لتراكيب الواجهات الداخلية التي تُؤلف كُلاً منها سطحاً عمودياً دونَ بروزات.

الصورة (12)[33] المشربية

الصورة (13)[34] السِّباط

3– المدلول وهو العنصر الثالث في "مثلث بيرس" وما يقابله من تفسير عناصر البحث العمرانية والمعمارية:

تُظهر عناصر المدينة المكانية جُملةً من الارتباطات المتعاكسة والمتكاملة في آن، كما تم بيانه في الجدول التالي.

Balpreet Singh Madan, Shubhangi Saxena, Islamic Architectural Heritage: Mashrabiya, from Tradition to Innovation, Department of Design, School of Architecture and Planning, Sharda University, India.

[33] مصدر صور البحث أرشيف الفنان التشكيلي والمصوِّر الفوتوغرافي السُّوري جورج عشي في بدايات القرن الحالي.

[34] المصدر السابق

الجدول (2)[35] العلاقات المكانية في مستويات المدينة.

العنصر / الموضوع	
الدلالة / الدّال	المدلول / التفسير
العُنصر: مقياس تخطيط المدينة	
الدال –1– شبكة تخطيط منتظمة من الفترة اليونانية والرومانية. الدال –2– نسيج عمراني عضوي.	تُترجم العلاقة العكسية بتضاد عنصرين أحدهما هندسي الشكل يُشكل النَسَقَ المُؤطِّر، للآخر العُضوي الشكل، ونقرأ العلاقة التقابُليّة التالية – **تنظيم شطرنجي /x/ نسيج عمراني عضوي.**
العُنصر: مقياس التصميم العمراني	
الدال –1– الشارع المستقيم نسبةً للزقاق.	نُلاحظ تكرار (ونمطيّة) علاقة التضاد بين مكونات العُمران؛ ما بين الشارع ذو المقياس الإنساني في مقابل الشوارع الرئيسية المُتصلة بفراغ الساحة الكبير بالمقارنة، وهذا يعني وجود العلاقة التقابليّة التالية: **فراغ ضيّق /x/ فراغ واسع**
الدال –2–: فراغ الحركة العمراني مع الكتل المبنية.	تتجلى علاقة التضاد بين البيوت المتلاصقة إحداها على الأخرى، تاركةً بينها ممرات وشوارع (فرعيّة) تأخذ هيئة الأوردة والشرايين في الكائنات الحيّة، ونَستقرأ العلاقة التقابُليّة التالية: **(فراغات حركة ضيّقة /x/ مساحة مَبنيّة كبيرة)**
العُنصر: مقياس العمارة	
الدال 1– عناصر البيت التقليدي؛ المدخل، الفسحة السماوية، القاعة، الليوان.	بَمُقارنة أبعاد فراغي المدخل مع الأبعاد الثلاثية للقاعة والفسحة السماوية، نستنتج وجود علاقتي التضاد التاليتين: **خارج متواضع على مستوى الزخرفة واللّون X داخل غنيّ باللون والزخرفة.** – **مدخل ضيّق ذو سقف واطئ /x/ قاعة وليوان كبيري المساحة، بسقف عالٍ.**
الدال –2–الانفتاح نحو الداخل.	عَند المقارنة ما بين انفتاح البيت التقليدي نحو الداخل؛ حيث تُطل جميع فراغات البيت نحو الفسحة السماوية عبر النوافذ، مُقابل نُدرة النوافذ التي تُطل على الزقاق الخارجي والذي نُشير إليه بالانغلاق نحو الخارج، نَقرأ علاقة التضاد التالية: – **إغلاق نحو الخارج /x/ فتح نحو الداخل.**
العُنصر: مقياس العناصر المعمارية	
الدال 1– ارتباطات المشربية والسباط مع المحيط الخارجي (الخارج) ومع عناصر البيت التقليدي من الداخل (الداخل)	– تسمح المشربية باستكشاف الخارج وتَمنع المارَّة من كَشف الداخل. إن بروز المشربية عن مستوى الجدران الخارجية مع تَوضُّع السِّباط على مستوى الطابق الثاني في آن، يُظلِلُ الجدران والزقاق؛ وبالتالي نَستقرأ علاقتي التضاد التاليتين: – **تسمح المشربية بالنظر نحو الخارج /x/ تحجُبُ نظرات المارَّة نحو الداخل.** – **تظليل الواجهات الخارجية /x/ إنارة الواجهات الداخلية.**

[35] الباحثة.

تم التقاط علاقة تضاد وتكامل – بنتيجة تحليل الجدول السابق (الجدول (2)) – ما بين عناصر المدينة عمارةً وعمراناً وعلى مستوى تخطيط المدينة، والذي يُعزز تَبَني الرُؤية الرمزية للوحدة المؤلَّفة من نقيضين متكاملين؛ وبكلمات أخرى تُفسر علاقات التضاد التي تَم شرحها بتكاملٍ رمزي لقُطبين نقيضَيْن؛ تتآلفُ علاقات التضاد السابقة في ثُنائيات، تَشرح العلاقة بين قطبين متعاكسين ومُتكاملَين في الوقت عينه، فالعنصر 1 نَقيضٌ للعنصر 2 ومُكمِّلٌ له في آنٍ معاً، ويُشارُ إلى علاقة التكامل الرياضي بين عُنصرين في المعادلات الرياضية؛ بحسب التركيب الآتي:

[(عنصر 1) ∫ (عنصر 2)][36].

يُذكر في هذا الصدد الوحدة –الرَّمزية– المؤلفة من الثنائيات المتضادَّة في الفلسفات القديمة[37]؛ والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها: اتحاد الأبيض (والذي يَرمز إلى النور) مع الأسود (كرمز للظلام)، والوحدة المؤلفة من اجتماع الخير والشر، أو من اتحاد القوة المؤنثة في الطبيعة مع القوة المذكرة[38].

4- الخاتمة والنتائج:

- يفيد المنهج الاستقرائي – المُتبَّع هنا – في هَيكلة الدراسة الحاليَّة، ومن ثم، إلى تجميع القراءات المكانية والإشارة إلى نوع العلاقة المُحتملة بين عناصر المدينة على مستوياتها الأربعة، حسب رؤية البحث.
- يُتيحُ مفهوم الدلالة والرمز تَرجمةَ العلاقات المكانية، بَعد الوقوف على أصولها التاريخية، الجغرافية، الثقافية والاجتماعية، وحتى المناخية، وهذا يشمل العلاقات الوظيفية والصفات الشكلية والفيزيائية للفراغات المعمارية والعمرانية.
- ويُستشهد في هذا السياق، بالخصائص المعمارية للبيت التقليدي؛ حيث يُرجِعُ بعضُ المُنظِّرين انفتاح البيت نحو الداخل في مقابل الانغلاق نحو الخارج إلى عادات اجتماعية سائدة في المدينة، مثل تعزيز مفهوم الخصوصية؛ إن الجدران الصماء الخارجية على مستوى الطابق الأرضي تحجب أنظار المارَّة نحو الداخل، وتضفي جواً من الخصوصية على سكان البيت.
- كما أن النسيجَ العمراني للمدينة يُترجم الواقع الاجتماعي والأمني المُسيطر عِبر التاريخ، إذ يُعتبر أسلوب تخطيط المدن القديمة وتصميمها العمراني خط الدفاع الأمنيِّ الأول، وقد يُفسَّر التراصُّ ما بين المساكن في دمشق القديمة إلى النزعة لتأمين حالة من الأمان لساكنيها، ويتجلَّى النسيج العمراني عِبر العلاقات بين الفراغات والكتل المبنية؛ والتي تأخذ طابع الانغلاق نحو الخارج والانفتاح نحو الداخل، ما يُعرِّف "العلاقة المتناقضة" بين عناصر الداخل والخارج.
- بالتوازي مع طبيعة الواقع الأمني والاجتماعي، يُقدَّمُ عامل المناخ الحار تَفسيراً لملامح العمران والعمارة، حيث بِردّ التركيب المعماري على حرِّ الصيف عبر الظلال المُشكَّلة من حجوم المشربيات البارزة، بالإضافة إلى ضيق الأزقة ما يُخفف درجات الحرارة على الجدران الخارجية للبيوت من جهة، وفي الحارات والأزقة من جهة أخرى.
- تؤلِّف التناقُضات المُبيَّنة عبر العناصر المعمارية والعمرانية والتخطيطيّة في المدينة إعادةَ تمثيلٍ لرمز

[36] أُستخدم رمز التكامل الرياضي: (∫) للدلالة على تكامُل عُنصرين مُتناقضين، كما في طريقة كتابة المعادلات الرياضية (الباحثة).

[37] وكمثال على اجتماع النَّقيضَيْن مفهوم Concept تكامل الين YIN المُذكر واليانغ Yang في الفلسفة الصينية القديمة (الباحثة).

[38] MARJORIE COHEE MANIFOLD, Art Themes: Choices in Art Learning and Making, Indiana University Press, 2017. P571

تلاحم القُطبين المتباعدين في وحدة واحدة؛ وكمثال مما مرَّ سابقاً: الاتساع مقابل الضيق، النور ومقابله الظل، الفتح مع الإغلاق، والغنى في التشكيل في مواجهة البساطة الشكليّة.

- تُشير التفسيرات المذكورة إلى مستويات رمزية لاجتماع قطبين متباعدين في وحدة "واحدة"؛ كمثل ارتباط محوري الخير والشر واللذين يتحدان في بوتقة الحقيقة، ويشكّلان محور الثنائيات المتناقضة في فلسفات الديانات القديمة.

هذا البحث ممول من جامعة دمشق وفق رقم التمويل (501100020595).

المراجع References

1. أحمد غسان سبانو، دمشق في دوائر المعارف العربية والعالمية، دمشق، سوريا، 1972
2. جان مازيل، ت: ربا الخش، تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية، اللاذقية، سوريا، 1998
3. جان سوفاجيه، دمشق الشام، لمحة مختصرة منذ العصور القديمة وحتى العصر الحاضر، بيروت، 1936
4. فيروز مصطفى إبراهيم، نشأة المسكن في المدن، كلية الهندسة – جامعة طرابلس، 2019
5. علي أبو عساف، دمشق في العصور الكنعانيّة، مجلة التراث العربي العدد 55 و56، 1994
6. نزار حسن، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية – المجلد 24 –العدد الثاني–2008
7. Balpreet Singh Madan, Shubhangi Saxena, Islamic Architectural Heritage: Mashrabiya, from Tradition to Innovation, Department of Design, School of Architecture and Planning, Sharda University, India.
8. C. S. Peirce, Some Consequences of Four Incapacities, reproduction CP 5.264- 5.265 sq. 1868.
9. Hasan Mansour, The lost identity of the city: The case of Damascus, CITTA 8th Annual Conference on Planning Research, 2015.
10. MARJORIE COHEE MANIFOLD, Art Themes: Choices in Art Learning and Making, Indiana University Press, 2017.
11. Mogens Kilstrup, Naturalizing semiotics: The triadic sign of Charles Sanders Peirce as a systems property, Technical University of Denmark, 2015.
12. Vitruvius Pollio. Vitruvius, the ten books on architecture, Cambridge, Harvard university press; 1914.
13. Zara Lababedi, The Urban Development of Damascus: A study of its past, present and future, Bartlett School of Planning, University College London, 2008.
14. Le Corbusier, Crès et Cie, Vincent, Fréal & Cie, Paris, 1925.
15. Michel Maurille, Freud et le Moïse de Michel Ange, Harmattan, 2009.
16. Roland Barthes, L’aventure sémiotique, aux éditions du Seuil, Paris, 1985.
17. Simon Levesque, Le mystérieux fonctionnement de l’abduction selon Charles S. Peirce, CYGNE NOIR. 2015.
18. Thémélis Diamantis, Freud et l'art - Enjeux épistémologiques, 2006.
19. Yves Roujon, Luc Vilan, Les Faubourgs de Damas, Presses de l’Ifpo, Publications de l’Institut français du Proche-Orient, 197